تأويلات المستشرقين للنّصوص القرآنيـة وأثرها علـى الدّعوة الإسلامية

أ. علـــيّ أحمد محمد بن يحمد ـ كلية الدراسات الإسلامية سبها
الجامعة الأسمرية الإسلاميـــة

الملخّـــــــــــــص :

مما لاشك فيه أن المستشرقين ليسوا سواء، فمنهم المنصفين الذين قدموا خدمة جليلة للتراث الإسلامي، ومنهم غير المنصفين ؛ بل منهم الحاقدون على الإسلام والمسلمين، فهذا البحث يهدف إلى بيان تأويلات المستشرقين للقرآن الكريم، والتي لم يلتزموا فيها بالأمانة العلمية وضوابط البحث العلمي، وإنما قاموا بتأويل النصوص القرآنية حسب أهواءهم وأفكارهم السابقة على القرآن، يدفعهم حقدهم على الإسلام والمسلمين ، فأثاروا الشبهات وشككوا في القرآن الكريم بحجة التأويل .

ولقد قمتُ في هذا البحث ببيان مفهوم التأويل مع ذكر أنواعه وضوابطه وبيان حكمه، كما بينت مفهوم الاستشراق مع ذكر أهدافه، كما عرضت مناهج المستشرقين في تأويلهم للنص القرآني، وذكرت أمثلة على هذه التأويلات الباطلة، وختمت البحث بعرض بعض الآثار والأضرار التي خلفتها تأويــلات المستشرقين على الدّعوة الإسلامية، كما بينت واجب الدعاة إلى الله عزو جل في تفنيد هذه الشبهات والشكوك التي يثيرها المستشرقون حول القرآن الكريم.

Research summary

Praise be to Allah, lord of the worlds, and prayers and peace be upon our master Mohammed and his family and companions all.

Then:

There is no doubt that orientalists are not either, including fair-minded people who have provided a great service to the Islamic heritage, including those who are not fair, but haters of Islam and Muslims. The research aims to clarify orientalist interpretations of the Holy Qur'an, in which they did not adhere to scientific honesty and the regulations of scientific research. rather they interpreted the Qur'anic texts according to their whims and thoughts that preceded the Qur'an. The hidden hatred against Islam and Muslims pushed them to raise suspicions and doubt the holy Qur'an under the pretext of interpretation.

In this research, I have clarified the concept of Interpretation, mentioned its rulings and clarified its rulings, as I explained the concept of Orientalism with mentioning its objectives, I also presented the methods of their interpretation of the Qur'anic text with examples of these false interpretations.

Then the research concluded by presenting some of the effects and damages left by the interpretations of orientalists on the Islamic call, as well as the duty of the callers to Allah Almighty in refuting these suspicions and doubts raised by orientalists about the Holy Qur'an.

المقدمـــــــــــــة :

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وجعلنا من أمة خير الأنام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي العدنان، وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم السلام.

أما بعد:

يُعد التأويل من أخطـــر وأهم السبل في التعاطي مع النّصوص الشرعية ، فقد ضل بسبب الإفراط فيه خلق كثير، وفِـــرق يصعب حصرها من المسلمين، وفــرق أخرى من غير المسلمين كالمستشرقين، والنصارى، فبعدما فشلت الحروب العسكرية في القضاء على الإسلام، اتّجه أعداء الإسلام إلى سلاح جديد، وهو الغزو الفكري، وذلك من خلال التشويه والتشكيك في الدّين الإسلامي، وفي مصادره والتي من أهمها القرآن الكريم، على أيدي المستشرقين تحت مظلة البحث العلمي.

حيث يحاول المستشرقون تحريف وتبديل كلام الله، من خلال الترجمة التي يقومون بها لمعاني القرآن الكريم، ومن خلال تأويلاتهم للقرآن الكريم، دون دراية بعلوم اللغة وعلوم البلاغة، حيث اجتمع فيهم سوء الفهم مع سوء الظن.

ومن باب الانصاف أن المستشرقين ليسوا سواء، فهناك مستشرقين منصفين، درسوا علوم المسلمين دراسة موضوعية، وقدّموا خدمة جليلة للتراث الإسلامي، من خلال أبحاثهم، فمنهم من أسلم، ومنهم من قال الحقيقة بكل تجرد وإنصاف، وإنما محل الدراسة في هذا البحث حول المستشرقين الحاقدين على الإسلام والمسلمين، الذين لم يلتزموا بالموضوعية والمنهجية العلمية في تعاملهم مع القرآن الكريم وكتب التراث الإسلامي.

الإشكاليات:

ما هو التأويل الباطل والتأويل الصحيح؟ وما الغاية التي يسعى إليها المستشرقون الحاقدون من تأويلهم الباطل للنص القرآني؟ وما هو منهجهم في التأويل؟ وهل يلتزمون بضوابط التأويل العلمية التي وضعها العلماء؟ وما أثر تأويلاتهم على الدعوة الإسلامية؟ وهذا ما سأجيب عنه في ثنايا البحث.

أهمية البحث :

تكمن أهمية الموضوع فيما نراه اليوم من تأثر الكثير من المفكرين المسلمين

بالشبهات، التي يثيرها المستشرقون من خلال تأويلاتهم للنصوص القرآنية، حيث تلقف هذه التأويلات بعض المثقفين المسلمين، ووجدوها مدخلا للتشكيك والطعن في كثير من الأحكام الشرعية، كقضية الحجاب، والحدود، والدعوة للتسوية في الميراث بين الرجل والمرأة، وغيرها من الأحكام الشرعية.

أسباب اختيار البحث :

لقد وجد أعداء الإسلام في تأويل نصوص القرآن والسنة النبوية، حسب أهوائهم منطلقا للطعن في الدين الإسلامي، فقاموا بإثارة العديد من الشبهات حول الإسلام، ونبي الإسلام ﷺ، وذلك من خلال تأويل آيات من القران الكريم دون ضوابط التأويل العلمية، كما إن هذه التأويلات فتحت الباب للعلمانيين والعقلانيين في الطعن في كثير من الآيات القرآنية، بحجة أنها غير موافقة للعقل، ولا تصلح لهذا العصر حسب زعمهم، كما أثرت هذه التأويلات على عقول الشباب وزعزت عقيدتهم ودينهم.

لهذه الأسباب رأيت أن من واجب الدعاة إلى الله عزو جل بيان وكشف منهج المستشرقين الخاطئ في تأويلهم للقرآن الكريم، وذلك ببيان أصول وقواعد التأويل الذي يتميز من خلالها التأويل الفاسد الباطل عن التأويل الصحيح المبني على المنهج العلمي.

الدراسات السابقة:

وقفت على العديد من الدراسات التي تعنى بالظاهرة الاستشراقية، والتي كانت أغلبها حول التعريف بالاستشراق ونشأته ومنهجه في التعامل مع التراث الإسلامي، وطريقة المستشرقين في ترجمة القرآن الكريم، ولم أجد من أفرد بحثا عن خطورة تأويلات المستشرقين على الدعوة الإسلامية، لذا ستكون دراستي حول تأويلات المستشرقين للنص القرآني، مع بيان أثر هذه التأويلات على الدعوة الإسلامية، ومن أهم هذه الدراسات التي وقفت عليها.

1 – كتاب (نقد الخطاب الاستشراقي) لمؤلفه : ساسي سالم الحاج، من إصدارات دار الكتب الوطنية بنغازي الطبعة الأولى 2002 م، حيث تناول المؤلف في هذا الكتاب التعريف بالاستشراق وبيان سبب نشأته وتطوره وأهدافه، وبيان المراحل التاريخية التي مرت بها هذه الظاهرة وخصائص كل مرحلة، كما قام المؤلف ببيان المنهج الذي قام بها المستشرقون، وعرض آرائهم في كل المجالات التي تناولها المستشرقون فيما يتعلق بالحياة الشرقية، بينما ستكون دراستي حول تأويلات المستشرقين وخطرها على الدعوة الإسلامية.

2 – كتاب (القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي) لمؤلفه : محمد أبوليلة، دار النشر للجامعات مصر، الطبعة الأولى 2002م، تناول فيه مؤلفه تاريخ كتابة القرآن ولغة القران وأسلوبه، كما تناول جوانب عديدة من الترجمات التي قام بها المستشرقون للقرآن الكريم، كما قام بسرد الكثير من آراء المستشرقين وموقفهم من الوحي والقرآن الكريم، وسأواصل الدراسة على من سبقني للظاهرة الاستشراقية مع بيان خطر التأويلات الباطلة للنصوص القرآنية على الدعوة الإسلامية في الواقع المعاصر وعلى شباب المسلمين الذين تأثروا بتأويلاتهم وشبههم المحرفة عن القرآن الكريم.

المنهج المتبع في البحث:

اعتمدت في دراستي على المنهجين : المنهج الوصفي والاستقرائي، حيث قمت بوصف وبيان الظاهرة الاستشراقية، واستقراء بعض التأويلات التي قام بها المستشرقون للنص القرآني.

الصعوبات : من أهم الصعوبات التي واجهتني في دراستي: قلة المصادر التي تتحدث عن آثار تأويلات المستشرقين للقرآن الكريم.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة، ومبحثين، وخاتمة ، المقدمة: تشمل أهمية الموضوع وأسباب اختياره والدراسات السابقة والمنهج المتبع في البحث وخطة البحث المبحث الأول: التعريف بالتأويل والاستشراق في ثلاثة مطالب: المطلب الأول: تناولت فيه تعريف التأويل لغة واصطلاحا. والمطلب الثاني: تناولت فيه ضوابط التأويل وحكمه وأقسامه ، والمطلب الثالث: عرفت فيه الاستشراق لغة واصطلاحا. وأما المبحث الثاني: منهج التأويل عند المستشرقين وأثره على الدعوة المطلب الأول: تناولت فيه منهج المستشرقين في تأويل نصوص القرآن و المطلب الثاني: عرضت فيه نماذج من تأويلات المستشرقين للنصوص القرآنية والمطلب الثالث: ذكرت فيه أثر تأويلات المستشرقين على الدعوة وطرق علاجها ، ثم الخاتمة وذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات ثم قائمة المصادر والمراجع

المبحث الأول ـ بيان حقيقة التأويل والاستشراق:

المطلب الأول ـ تعريف التأويل لغة واصطلاحا:

أولا: التأويل لغة : قال ابن منظور: الأوْل الرجوع، آل الشيء يؤول ومآلا رجع، وأوّل إليه الشيء: رَجَعَهَ. وألْتُ عن الشيء: ارتددت ويقال: طبخت النبيذ حتى آل إلى الثلث أو الربع أي رجع، وأوّلَ الكلام وتَأَوَّلَهُ: دبره وقدره، وأوله وتأوله: نشره: ومنه

قوله عز وجل: ﴿ **وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** ﴾[1] ، أي : لم يكن معهم علم تأويله (2) ، وقال ابن فارس: آل يؤول أي رجع " أوّل الحكم إلى أهله" أي أرجعه ورده إليهم، والأيالة السياسة من هذا الباب لأن مرجع الرعية إلى راعيها، ومن هذا الباب تأويل الكلام وهو عاقبته، وما يؤول إليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ** ﴾(3) والتَأْويل: تفسير ما يَؤُولُ إليه الشيء، وقد أَوَّلْتُه وتأَوَّلْتُه، تأوّلاً بمعنىً. وآلُ الرجل: أهلُه وعيالُه. وآلُهُ أيضاَ: أتباعُه بمعنىً (5)

ثانيا- التأويل اصطـــلاحًا: وردت عدة تعريفات للتأويل في الاصطلاح منها: تعريف الآمدي : "هُوَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى غَيْرِ مَدْلُولِهِ الظَّاهِرِ مِنْهُ، مَعَ احْتِمَالِهِ لَهُ (6) ، وعرفه الغزالي بأنه:" احتمال يعضده دليل، يصير به أغلبَ على الظـنّ من المعنى الذي يدل على الظاهر لَهُ"(7)، وعرفه الجويني بأنه :" ردّ الظاهر إلى ما إليه مآله في دعوى المـــؤوِل"[8]

ثالثا ـ التأويل في الكتاب والسنة: ورد لفظ التأويل في كتاب الله عزو جل في أكثر من آية منها: قولــه – تعالــى - : ﴿ **وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ﴾[9]. وقال ابن عباس: "أنا ممن يَعلَم تأويله وقرأ مجاهد هذه الآية وقال أنا ممن يعلم تأويله"[10] ومنها قوله – تعالــى - : ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله** ﴾[11]، أي : عاقبة ما فيه، وعاقبة القرآن : ما وعد الله فيه من البعث والحساب وجزاء التكذيب به[12] ، كما وورد في السنة النبوية لفظ التأويل، عن سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يَقُولُ: وَضَعَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، أَوْ قَالَ: عَلَى مَنْكِبَيَّ فَقَالَ: " **اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ"** (13) ، يقول ابن الجـــوزي في شرحه لهذا الحدي ث: " فيه قولان: أحدهما أنه التفسير والثاني: أن التأويل نَقْلُ الظاهرِ عن وضعه الأصلي إلى ما يُحتاج في إثباته إلى دليلٍ، لولاه ما ترك ظاهر اللفظ فهو من آل الشيء إلى كذا أيْ صار إليه"[14]، و من خلال ما سبق يتبن لنا أن التأويل من المصطلحات الشرعية التي وردت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بمعان مختلفة، مما جعل الاختلاف في تحديد مفهوم التأويل قائم إلى الآن.

المطلب الثاني ـ ضوابط التأويل وحكمه وأقسامه:

أولا ـ ضوابط التأويل : وضع العلماء عدة شروط للتأويل كي يكون مقبولًا وأهم هذه الشروط ما يلي:

1 - أن يكون اللفظ قابلًا للتأويل، كالظاهر والنص عند الحنفية، دون المفسّر والمحكم.

2 - أن يستند التأويل إلى دليل صحيح يدل على صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى

غيره، وأن يكون هذا الدليل راجحًا على ظهور اللفظ في مدلوله.

3 - أن يكون اللفظ الذي يُراد تأويلُهُ يحتمل المعنى الذي يؤوّل إليه، ولو احتمالًا مرجوحًا، وهذا يختلف باختلاف وجهات النظر.

4 - أن تتوفر في الناظر في التأويل الأهلية الكافية في الاجتهاد، ليوافق تأويلُه وضع اللغة، أو عرف الاستعمال، أو العرف الشرعي[15]، وهذ الضابط يفتقده أغلب المستشرقين الذين خاضوا في تأويل النصوص الشرعية، حتى وقعوا في التأويل المذموم.

5 - أن يقـرّر المؤول أن هذا حسب فهمه للنص، ولا يلزم من ذلك أن هذه حقيقة النص، و أن لا يتعسف في تأويل الآيات ويلويها لتوافق ما يريده هو من التأويل.[16]

ثانيا: حكم التأويــل : يختلف حكم التأويل باختلاف نوعه ، فيكون التأويل مقبولا إذا تحققت شروطه السابقة الذكر، ولم يزل العلماء في كل عصر ومصرٍ من عهد النبي - ﷺ - إلى يومنا هذا عاملين به من غير أن ينكر عليهم أحد[17] ، وأما إذا لم تتحقق شروطه فهو مذموم ومردود، وبين الشيخ الطاهر بن عاشور سبب ذم القرآن للتأويل وهو طلبُ الْفِتْنَةِ، كما في قوله - تعالى- : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾[18]" وليس طلب تأويله في ذاته بمذمة، بدليل قوله: ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾[19] ، وإنما محل الذم أنهم يطلبون تأويلا ليسوا أهلا له، فيؤولونه بما يوافق أهواءهم، وهذا ديدن الملاحدة وأهل الأهواء: الذين يتعمدون حمل الناس على متابعتهم تكثيرا لسوادهم... وقد فهم أن المراد: التأويل بحسب الهوى، أو التأويل الملقي في الفتنة"[20]. وقد أَمسكَ السلفُ عن التأْويل بدون علم، فقال أَبوبكر- رضِي اللَّه عنه- : "أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، وَأَيُّ سَماءٍ تُظِلُّنِي، إِذَا قُلْتُ عَلَى اللهِ مَا لاَ أَعْلَمُ " [21].

فلا ينبغي لمن لم تتوفر فيه شروط التأويل، أن يعمد إلى تأويل القرآن الكريم، وخاصة المستشرقين الذين ضلوا وأضلوا بغير علم، يدفعهم الحقد الدفين والبغضاء على الإسلام والمسلمين لتأويل وتحريف كلام الله، محاولة منهم للتشكيك فيه، وإبعاد الناس عنه. فالتأويل بغير علم ولا دليل يدخل في تحريف الكلم عن موضعه كما قَالَ تَعَالَى ذاما لمن يفعل ذلك ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾[22] فمن يقوم بتأويل النصوص القرآنية بِغَيْر برهَان أَوْ اجماع فقد ادّعى أن النَّص لَا بَيَان فِيهِ وَقد حرف كَلَام الله تَعَالَى ووحيه إِلَى نبيه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَن مَوْضِعه وَهَذَا عَظِيم جدا مَعَ أَنه لَو سلم من هَذِه الْكَبَائِر لَكَانَ مُدعيًا بِلَا دَلِيل[23]

ويجب على الدعاة إلى الله- عز وجل - تحذير الناس من خطر تأويل القرآن بدون علم، فالتأويل بدون علم هو من القول على الله بغير علم، الذي نهانا عنه ربنا - عز وجل- في محكم التنزيل قال تعالى:﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (24)

ثالثا ـ أقسام التأويل وأنواعه: يقسم العلماء التأويل إلى ثلاثة أنواع: وهي التأويل القريب، والتأويل البعيد، والتأويل الباطل، وفيما يلي بيان كل نوع:

1 - التأويل القريب وهو:" ما إذا كان المعنى المُؤَوَّل إليه اللفظ قريباً جداً، فهذا يكفيه أدنى دليل مثل قوله – تعالى- : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ** ﴾ (25) فإن القيام إلى الصلاة قد صرف عن معناه الظاهر إلى معنى قريب محتمل، وهو: العزم على أداء الصلاة، والمراد: إذا عزمتم على أداء الصلاة، والذي رجح هذا الاحتمال دليل وهو أن الشارع لا يطلب الوضوء من المكلفين بعد الشروع في الصلاة.

2 - **التأويل البعيد :** وهو ما إذا كان المعنى المُؤَوَّل إليه اللفظ بعيداً جداً، فهذا يحتاج إلى دليل في غاية القوة مثل قوله - تعالى - : ﴿ **وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾ (26) فقد أوّل ذلك بعضهم بأن المراد: مسح الرجلين بدلاً من غسلها، وقد استدل على هذا التأويل بقراءة الجر في قوله : ﴿**وأرجلِكم**﴾ وأن ذلك كان عطفاً على قوله: ﴿**بروؤسكم**﴾ فقالوا ذلك نظراً إلى تلك القراءة، ولكن ما ثبت من الأحاديث الصحيحة التي أمرت بغسل الرجلين جعل هذا التأويل بعيداً جداً" (27)

3 – التأويل الباطل: ويسمى أيضا بالتأويل المردود، لمخالفته ضوابط التأويل العلمية، وذكر ابن القيم رحمه الله عشرة أنواع للتأويل الباطل، وفصّل الكلام فيها، نذكر هذه الأنواع باختصار لأهميتها(28):

الأول : مالم يحتمله اللفظ بوضعه كتأويل قوله حتى يضع رب العزة عليها رجله بأن الرجل جماعة من الناس فإن هذا لا يعرف في شيء من لغة العرب البتة.

الثاني: ما لم يحتمله اللفظ ببنيته الخاصة من تثنية أو جمع، وإن احتمله مفردا، كتأويل قوله: ﴿ **لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ (29) بالقدرة.

الثالث: ما لم يحتمله سياقه وتركيبه، وإن احتمله في غير ذلك السياق.

الرابع: ما لم يؤلف استعماله في ذلك المعنى في لغة المخاطب وإن ألف في الاصطلاح الحادث وهذا موضع زلت فيه أقدام كثير من الناس، وضلت فيه أفهامهم، حيث تأولوا كثيرا من ألفاظ النصوص بما لم يؤلف استعمال اللفظ له في لغة العرب البتة.

الخامس: ما ألف استعماله في ذلك المعنى، لكن في غير التركيب الذي ورد به النص، فيحمله المتأول في هذا التركيب الذي لا يحتمله على مجيئه في تركيب آخر يحتمله، وهذا من أقبح الغلط والتلبيس.

السادس: اللفظ الذي اطرد استعماله في معنى هو ظاهر فيه ولم يعهد استعماله في المعنى المؤول، أو عهد استعماله فيه نادرا، فتأويله حيث ورد وحمله على خلاف المعهود من استعماله باطل.

السابع: كل تأويل يعود على النص بالإبطال، فهو باطل.

الثامن: تأويل اللفظ الذي له ظاهر لا يفهم منه عند إطلاقه سواه.

التاسع: التأويل الذي يوجب تعطيل المعنى الذي هو في غاية العلو والشرف، ويحطه إلى معنى دونه بمراتب كثيرة، وهو شبيه بعزل سلطان عن ملكه وتوليته مرتبة دون الملك بكثير.

العاشر: تأويل اللفظ بمعنى لم يدل عليه دليل من السياق ولا معه قرينة تقتضيه، أه.

ويرى الباحث أن تأويلات المستشرقين أغلبها إن لم يكن كلها، من التأويل الباطل المردود، لأنهم ليس أهل له، ولم يلتزموا بضوابط البحث العلمي، ويؤلون بدون علم حسب أهواءهم، بغرض التشكيك والطعن في كتاب الله كما سنبين لاحقا إن شاء الله

المطلب الثالث: تعريف الاستشراق لغة واصطلاحا.

أولا: لغةً: هي كلمة مشتقة من مادة (شرق) يقال: شرقت الشمس شرقا وشروقاً إذا طلعت[30]، وجاء في معجم متن اللغة: استشرق أي: طلب علوم الشرق ولغاتهم، "مولدة عصرية" يقال لمن يعنى بذلك من علماء الفرنجة[31].

ثانيا: تعريف الاستشراق اصطلاحا: اختلف الباحثون في تعريف الاستشراق، ويعود ذلك إلى تصور كل واحد منهم لحقيقة الاستشراق وأهدافه، فقد وردت عدة تعريفات له منها:

1 - عـرّفه إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق": "بأنه أسلوب غربي للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه والتسلط عليه"[32]

2 - وعرفه محمود زقزوق بأنه : "الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام "[33]

ثانيا: أهــداف المستشرقين من تأويل النص القرآني: من أهداف المستشرقين المنصفين البحث العلمي المجرد، وهؤلاء ليس لهم أجندة، وإنما يقومون ببحث علمي محض، ولم يكن لهم هدف إلا البحث ودراسة التراث الإسلامي، وقدموا خدمة كبيرة للتراث الإسلامي، وهؤلاء قليلون جدا، وهم ليس محل دراستنا في هذا البحث، وإنما نبين أهداف المستشرقين الحاقدين على الإسلام وهم الأغلبية والحكم على الغالب.

إن الهدف الرئيسي للمستشرقين من دراسة وتأويل النصوص القرآنية هو إثارة الشبهات حول الدين الإسلامي والقضاء على تعاليمه، وصد الناس عنه، حيث يرى المستشرقون بأن الإسلام قضى على النصرانية وحدّ من انتشارها، كما يقول المستشرق الألماني (كارل هينرش بيكر): "أن هناك في النصرانية عداء للإسلام، بسبب أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى، أقام سدا منيعا في وجه انتصار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها، وكذلك عبر المستشرق الإنكليزي (لورانس بروان) عن رأيه محذرًا من خطر الإسلام قائلا: إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قدرته على التوسع وفي الإخضاع وفي حيويته، وأنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي"(34)

والمتتبع لدراسات المستشرقين قديما وحديثا، يجد فيها العداء المباشر للدين الإسلامي، وذلك من خلال الترجمة التي يقومون بها للقرآن الكريم خصوصا وكتب التراث الإسلامي عموما، حيث لا يتحرون في دراستهم الأمانة العلمية وضوابط البحث.

"ذهب المستشرقون في دراستهم للقرآن الكريم إلى تفحص أسراره البلاغية، ومنهم المستشرق الفرنسي (بودييه) الذي يعد من الأوائل العاملين في تحليل النصوص القرآنية ومقارنتها بما يعرفه عن الديانات السابقة، التي ذكرها مع إصراره على دراسة الظروف العامة التي تحيط بنزول القرآن الكريم، في محاولة لإيجاد تناقضات في ذلك "(35)

يقول الحســن الندوي:" وغاية هؤلاء المستشرقون بوجه عام ؛ إنما هي البحث عن مواضع الضعف وإبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية، فلا يرون في مدينة ذات بهجة إلا المزابل والمراحيض، كما هو دأب مفتشي النظافة في كل مكان... ،ومن دأبهم أن يعينوا لهم غاية ويقرروا في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، ثم يقوموا لها بجمع معلومات من كل رطب ويابس ليس لها أي علاقة بالموضوع، سواء من كتب الديانة والتاريخ أو الأدب و الشعر أو الرواية والقصص، أو المجون والفكاهة،

وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ويقدمون بعد التمويه بكل جراءة ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم"[36]

ولا تــزال الكنائس في الغرب تقدم الدعم المادي والمعنوي للمستشرقين كي يقوموا بمزيد من إثارة الشبهات حول الدين الإسلامي، والتشكيك والطعن في أهم مصادره وهو القرآن الكريم، وذلك بحجة البحث العلمي، من خلال تأويل وترجمة معاني القرآن حسب أهواءهم، وغيرها من الوسائل التي يقومون بها محاولة منهم للقضاء على الدين الإسلامي.

المبحث الثاني ـ منهج التأويل عند المستشرقين وأثــره على الدعوة:

إن المتتبع لتاريخ الاستشراق سيجد أنه امتداد للحرب التي شنها اليهود والنصارى على الدين الإسلامي منذ ظهور الإسلام، واستمر هذا العداء إلى يومنا هذا، حيث يدرك اليهود أن قوة المسلمين تكمن في القرآن العظيم، فعمدوا إلى تحريفه والتشكيك فيه تحت مظلة البحث العلمي. واتخذ هؤلاء المستشرقون سبلاً كثيرة للطعن في القرآن الكريم، لإعراض الناس عنه، فتارة يحرفون آياته، وتارة يؤولونه بتأويلات بعيدة دون علم بضوابط التأويل، وفي المطالب الآتية نفصل القول في مناهج وطرق المستشرقين في تأويل القرآن الكريم مع بيان نماذج لتأويلاتهم الباطلة.

المطلب الأول ـ منهج المستشرقين في تأويل النص القرآني:

لم يلتزم المستشرقون بالمناهج العلمية أو بقواعد البحث العلمي الموضوعي والحيادي في تعاملهم مع النص القرآني، فالأخطاء والثغرات المنهجية في البحوث الاستشراقية عن الإسلام سائدة فيها بشكل كبير، فالنتائج فيها مسبقة للبحث، والسمات الأخرى لمناهج المستشرقين هي التشكيك والطعن والافتراء والافتراض، والنقل والاقتباس من مصادر غير موثوق بها، واعتماد الضعيف الشاذ، وفيما يلي بيان أهم المناهج والطرق التي سلكوها في تأويل النصوص القرآنية.

أولاـ التحــريف: إن المنهج الــذي يتبعه المستشرقون في تأويل كتاب الله عزوجل هو نفس المنهج الذي اتبعه أسلافهم من اليهود والنصارى الذين حرفوا التوراة والانجيل، كما أخــبر عنهم القرآن الكريم ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ** ﴾[37] ، والتحريف هو الميل بالشيء، واستعمل هنا في التأويل الباطل، فهو تحريف مراد الله عزوجل في التوراة إلى تأويلات باطلة، كما يفعل أهل الأهواء في تحريف معاني وألفاظ القرآن الكريم بالتأويلات الفاسدة ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المقصود بالتحريف فساد التأويل[38]

وإن مما أوقعهم في تحريف النّص القرآني، هو عدم الاختصاص، فكثير من المستشرقين لا يفقهون شيئا من علوم اللغة العربية، فضلاً عن علوم التفسير وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، ومع على ذلك يعمدون إلى تأويل وتفسير القرآن بدون علم، قال مصطفى السباعي - رحمه الله - : "وفي جامعة أكسفورد وجدنا رئيس قسم الدراسات الإسلامية والعربية فيها يَهُودِيًّا يتكلم العربية ببطء وصعوبة، وكان – أيضاً- يعمل في دائرة الاستخبارات البريطانية في ليبيا خلال الحرب العالمية الثانية، وهناك تعلم العربية العامية، وتلك هي مؤهلاته التي بَوَّأَتْهُ هذا القسم، ومن العجيب أني رأيت في منهاج دراساته التي يلقيها على طلاب الاستشراق: تفسير آيات من القرآن الكريم من " الكَشَّافِ " للزمخشري (إي : والله وهو لا يحسن فهم عبارة بسيطة من جريدة عادية)"(39)

ثانيا ـ الإسقاط : يعرف علماء النفس الإسقاط بأنه: "حيلة نفسية، يلجأ إليها الشخص كوسيلة للدفاع عن نفسه ضدّ مشاعر غير سارّة في داخله، مثل الشعور بالذنب أو الشعور بالنقص، فيعمد - على غير وعي منه - إلى أن ينسب للآخرين أفكاراً ومشاعر وأفعالاً حياله، ثمّ يقوم من خلالها بتبرير نفسه أمام ناظريه"(40)

مارس المستشرقون عملية الإسقاط عند تأويلهم للنصوص القرآنية متأثرين بخلفياتهم العقدية، وموروثاتهم الفكرية، فقاموا بإسقاط ما وجدوه في دياناتهم المحرّفة على القرآن الكريم، محاولين بذلك التشكيك فيه والانتقاص من قدره واعتباره كتابا كسائر الكتب يعتريه الخطأ والصواب. فقد قام بعض المستشرقون باستخدام المنهج الإسقاطي على الدراسات الإسلامية، ووصلوا بتطبيقه إلى أحكام تعسفية باطلة، لا صلة لها بالبحث العلمي السلمي، وطوعوا هذه الصور الذهنية المسبقة في عقولهم سلبا لتفسير التاريخ الإسلامي، وبما أن هذا المنهج يخضع لهوى الباحث وأحكامه المسبقة، فإن النتائج المرجوة منه لا تكون موضوعية ولادقيقة في أغلب الأحيان(41) ، و"كان للمستشرق (جولد زيهر) قصب السبق في تحريف مدلولات القرآن الكريم عن الله تعالى بإسقاط المفاهيم اليهودية والنصرانية على هذه المدلولات، والتي لا تتفق والعقيدة الإسلامية ومن ذلك إسقاطه لمفهوم التجسد الإلهي عند اليهود والنصارى، على التمثيل القرآني لنور الله سبحانه وتعالى بنور المصباح في مشكاة، وهذا الإسقاط نابع من جهل المستشرق بالأساليب البلاغية في اللغة العربية والتي منها التشبيه، ونابع كذلك من تأثره بمسلك آبائه من اليهود الذين كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه؛ لأن العقائد القرآنية لا يمكن استنباطها من آية واحدة بدون جمع

سائر الآيات القرآنية في العقيدة الواحدة، فالله عزوجل وإن ضرب مثلاً لنوره في هذه الآية، فإنه قال في غير هذا الموضع **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**[42] وقال:**﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾**[43] "[44] ، وفي معرض إسقاط عقيدة تجسيد الإله في اليهودية والنصرانية على عقيدة القرآن في الله تعالى؛ ينتصر جولدزيهر لمذهب المشبّهة من الفرق الضالة في الإسلام عند وقوفه على آية: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [45] قائلاً: "ويجب أن نُقِرّ أنه ليس ثمة انتقاص لله في هذا التأويل أو التفسير السُّنّي، وقد خضع المستشرق جاك بيرك أيضاً لعقيدة التجسيد وأسقط مفهومها على قوله تعالى: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [46] مفسِّراً إياها كالتالي: فالله هو الذي تاب بدلاً منكم لأنّه يميل إلى التوبة "[47] ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. ويقول الدكتور حسين الهراوي: "وإني لأعلم أن المستشرقين ينقصهم في مباحثهم عن الإسلام الروح العلمية، وأن لهم في الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم، وهي أنهم يفرضون فرضًا ثم يلتمسون الدليل عليه، فإذا وجدوا في القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه، والتمسوا الآيات التي تناسب المعنى المراد، ولا مانع من بترها إذا اقتضى الحال، أو تحريف معناها حسب الرغبة فيخرج القارئ من كلامهم وهو يتهم الإسلام بالتلفيق"[48]

ثالثاـــ الاتهام والشك : من أشد التأويلات التي قام بها المستشرقون للنص القرآني، والتي تبين مدى حقدهم الدفين على الإسلام ونبي الإسلام، تأويل قول الله ـ تعالـــى- : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** ﴾ [49] حيث أوَّل المستشرقون هذه الآية باتهام الرسول الكريم ﷺ، بصفات لا تليق بالأنبياء الذي لهم العصمة، حيث زعموا أن النبي ﷺ دخل فجأة على زينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثه فوقع حبها في قلبه، وأخفى ذلك عن زيد، وطلقها منه لكي يتزوجها، والذي تولى كبر هذه الفرية النصراني يوحنا الدمشقي، الذي تضلع في اللاهوت، وصنف كتابا بعنوان الهرطقات، أفرد فيه فصلا عن الإسلام أطلق عليه اسم (هرطقة الإسماعيليين) ، ومن التلفيقات التي وضعها يوحنا في كتابه هذا تأويله وافترائه أن الرسول ﷺ دخل إلى بيت زينب بنت جحش في غياب زوجها فافتتن بها وخرج وهو يقول سبحان مقلب القلوب ... إلى آخر القصة التي تسربت إلى كتب التفاسير[50] ، قال القرطبي وهذا القول:" إنما يصدر عن جاهلٍ بعصمته ـ ﷺ ـ عن مثل هذا، أو مُسْتَخِفٍّ بحرمته"[51] "والذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين: أن ذلك القول الشنيع ليس بصحيح، ولا يليق بذوي المروءات، فأحرى بخير البريات" [52] ونقل ابن كثير عن الحسن بن علي رضي الله

عنهما: " أن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوج، فلما أتاه زيد رضي الله عنه ليشكوها إليه قال: اتق الله وأمسك عليك زوجك، فقال الله تعالى: قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه "[53]

وهذا هو التحقيق في معنى الآية الذي دلّ عليه القرآن، وهو اللائق بجنابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبه تعلم أن ما يقوله كثير من المفسّرين من أن ما أخفاه في نفسه ـ ﷺ ـ وأبداه الله وقوع زينب في قلبه ومحبّته لها، وهي تحت زيد، وأنها سمعته قال: "سبحان مقلب القلوب" إلى آخر القصّة، كله لا صحة له، والدليل عليه أن الله لم يبدِ من ذلك شيئًا، مع أنه صرّح بأنه مبدي ما أخفاه رسول الله ﷺ [54] ، وقال ابن العربي :" قد بينا في السالف وفي غير موضع عصمة الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ من الذنوب، وحققنا القول فيما نسب إليهم من ذلك، وعهدنا إليكم عهدا لن تجدوا له ردا، أن أحدا لا ينبغي أن يذكر نبيا إلا بما ذكره الله، لا يزيد عليه، فإن أخبارهم مروية، وأحاديثهم منقولة بزيادات تولاها أحد رجلين: إما غبي عن مقدارهم، وإما بدعي لا رأي له في برهم ووقارهم، فيدس تحت المقال المطلق الدواهي، ولا يراعي الأدلة ولا النواهي "[55]

فبالإجمال لم يتبع المستشرقون المنهج العلمي للتأويل، ولم يلتزموا كعادتهم بمناهج البحث العلمي، بل يلفقون بينها، بحسب ما يخدم أغراضهم وأهواءهم، وأحكامهم الجائرة المسبقة على النص القرآني.

المطلب الثاني ــ نماذج من تأويلات المستشرقين للنّص القرآنـــي :

1ـ تأويل آيات عالمية الدين الإسلامـــي: يزعم المستشرقون أن الدين الإسلامي خاص بالعرب، فعمدوا إلى تأويل الآيات التي نزلت في بداية الدعوة، ويتركون الآيات الأخرى التي تدل على عالمية الدين. واستدلوا بالآيات التي نزلت في مكة بداية الدعوة: منها قوله تعالى:﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُــرَى وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [56] وقوله : ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ** ﴾ [57]

يقول المستشرق غيتاني : "لم يتخط محمد بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو أمم العالم في ذلك الوقت إلى هذا الدين"[58] كما ادعى المستشرق مور: "أن عموم فكرة الرسالة جاءت فيما بعد، وأن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها، لم يفكر فيها محمد نفسه، وعلى فرض أنه فكر فيها، فقد كان تفكيره تفكيراً غامضاً، فإن عالمه الذي كان يفكر فيه، إنما كان بلاد العرب كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها، وأن محمداً لم يوجّه دعوته منذ بُعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم، وهكذا نرى أن

نواة عالمية الإسلام قد غرست، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك، فإنما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج"[59].

إن تأويل المستشرقين لآيات عالمية الدين من التأويلات الباطلة، فالآيات التي تدل على عالمية الدين كثيرة، فالنبي الكريم ﷺ، بعث للناس كافة كما أخبر المولى عزو جل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [60] ، ومما يدل على بطلان ما ذهب إليه المستشرقون أن النبي ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم لم يفهم أنه رسول للعرب فقط، بل عرض الإسلام على العرب وعلى غيرهم حيث بعث برسل للفرس والروم والأقباط يدعوهم إلى الإسلام، لكن هؤلاء المستشرقون أساءوا الفهم فأساءوا التأويل.

2 ـ تأويل المستشرقين للحروف المقطعة في القرآن الكريم: لقد توقف علماء المسلمين عن الخوض في معاني الحروف المقطعة وقالو الله أعلم بالمراد منها يقول السيوطي: "وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى فهو ما يجري مجرى الغيوب نحو الآي المتضمنة قيام الساعة وتفسير الروح والحروف المقطعة وكل متشابه في القرآن عند أهل الحق، فلا مساغ للاجتهاد في تفسيره ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف بنص من القرآن أو الحديث أو إجماع الأمة على تأويله"[61] ، **وأما** المستشرقون فقد خالفوا كل ما توصل إليه علماء المسلمين باجتهادهم في تفسير معاني الحروف المقطعة، حيث قاموا بوضع مفاهيم من بنات أفكارهم لا تمت إلى القرآن الكريم بأي صلة، فلم يقتنعوا بطبيعة التركيب القرآني ولم يكتفوا بأقوال الصحابة أو بأقوال أهل العلم فيها؛ بل اخترعوا تفسيرات من عند أنفسهم رضوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعتوا وطعنا في كتاب الله عزوجل [62] ، ومن هذه الأقوال:

ما قاله المستشرق الشهير، ثيودور نولدكه :" أن الحروف المقطعة قد تكون اختصارات لأسماء الرجال الذين ألفوا السور، كما قال المستشرق بيلامي : عن الحروف المقطعة إنها اختصار البسملة"[63] ، ويقول المستشرق (ويلش): لأربعة عشر قرناً ظلت هذه الحروف موضع غموض وحيرة لعلماء المسلمين، إذ يرى بعض العلماء أن فيها اختصاراً لعبارات ما، على سبيل المثال "الر" اختصار للرحمن، "الم" اختصاراً للرحيم، "حم" اختصاراً للرحمن الرحيم، "ص" اختصاراً صادي يا محمد، "يس" يا سيد المرسلين ، ويزعم المستشرق(نولدكه): أن هذه الحروف المقطعة وجدت طريقها إلى القرآن بمحض الصدفة، بمعنى أنهم الصحابة ضموها إلى القرآن ظناً أنها جزء من التنزيل، يقول المستشرق (لوث) أن الحروف المقطعة قد تأثرت في يعني التصوف اليهودي [64]

ولقد قيض الله لهذا الدين من ينفون عنه انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ومن هذه الردود على هؤلاء المستشرقين ما قاله محمد أبوليلة : إن الحروف المقطعة جزء من الوحي، ومعانيها المحددة كانت وستظل موضع خلاف بين علماء المسلمين؛ فهي من أسرار القرآن ومتشابهه، وما علاقة الحروف المقطعة باليهود وأين دليلهم اليهود أن الحروف المقطعة أصل وضعها (بالكبالا) [65] ، ويقول الطاهر بن عاشور: " افتتاح السورة بحرف التهجي الذي قصد منه تعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن، لأن عجزهم عن الإتيان بمثله في حال أنه مركب من حروف لغتهم، يدلهم على أنه ليس بكلام بشر، بل هو كلام أبدعته قدرة الله وأبلغه الله إلى رسوله ﷺ على لسان الملك"[66] وقال الباقلاني في شأن السور التي تبدأ بالحروف المقطعة: "وكثير من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن والتنبيه على وجه معجزته"[67]

فكل تأويلات المستشرقين للحروف المقطعة غير صحيحة، فهي غير مستندة لدليل علمي بل هي من محض خيالاتهم وأوهامهم، ولم يقل بها أحد من علماء المسلمين لا في السابق ولا في اللاحق.

3 – تأويل المستشرقين لآيات إعجاز القرآن الكريم : يدرك المستشرقون حقيقة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، بل إن كثيرا من المستشرقين أسلموا بسبب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، لذا عكف المستشرقون على دراسة كل الآيات القرآنية، فقاموا بتأويل آيات الإعجاز، وأثاروا كعادتهم حولها الكثير من الشبهات والشكوك، ومن أقوالهم في التشكيك في إعجاز القرآن الكريم: ما قاله الخوري: "إن إعجاز القرآن اللفظي ليس منزلاً، وإن لفظه هو لفظ محمد ونظمه وليس لفظه الوحي الذي نزل به، وبالتالي فإن إعجاز نظمه قائم على النبي لا على الوحي"[68]

وهذه الفرية التي ادّعاها المستشرقون ليست وليدة اليوم، بل سبقهم إليها المشركون في بداية الدعوة، فقد زعموا بأن النبي ﷺ "تلقى القران علي غلام رومي كان مولى لعامر بن الحضرمي، اسمه جبر كان يصنع السيوف بمكة، ويقرأ من الإنجيل ما يقرأ أمثاله من عامة النصارى من دعوات الصلوات، فاتخذ زعماء المشركين من ذلك تمويها على العامة، فإن معظم أهل مكة كانوا أميين فكانوا يحسبون من يتلو كلمات يحفظها ولو محرفة، أو يكتب حروفا يتعلمها، يحسبونه على علم، وكان النبيء صلى الله عليه وسلم لما جانبه قومه وقاطعوه يجلس إلى هذا الغلام، وكان هذا الغلام قد أظهر الإسلام فقالت قريش هذا يعلم محمدا ما يقوله ...وقد كشف القرآن هذا اللبس هنا

بأوضح كشف إذ قال قولا فصلا دون طول جدال: ﴿ **لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ :أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾[69] ، أي : كيف يعلمه وهو أعجمي لا يكاد يبين، وهذا القرآن فصيح عربي معجزٌ"[70]

وقد تأول جولد تسهير قول الله – تعالى - : ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾[71] بقوله: "إن إعجاز القرآن ليس إلا في تغلبه على الشعر وسجع الكهان وليس معجزاً في ذاته"[72]

وقام المستشرقون بالبحث والدراسة حول أسماء القرآن الكريم ولغته ليصلوا بها إلى الطعن في مصدره وإعجازه البياني، حيث درسوا القصص والأمثال، والأقسام في القرآن ليعززوا نتائجهم المسبقة، وأحكامهم المعدة سلفا، بأن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو من وضع محمد ﷺ، انتحله من اليهودية النصرانية، وبعض القصص القديمة التي تلقاها محمد ﷺ مشافهة من رجل رومي بمكة، ونسج منها هذا القرآن الذي عزاه فيما بعد إلى الله عزوجل، وهذا إفك افتروه وأعانهم عليه عصابة من أبناء أمتنا من العلمانيين والعقلانيين، الذين يعتبر أحدهم أن القصص في القرآن فنا أدبيا كأي فن من الفنون، وأن محمد ﷺ فنان؛ والأدهى من ذلك ما نادى به أحدهم بمعاملة القرآن نقديا كنص أدبي مثل سائر النصوص ، وقبول تفكيكه وتحليله بغرض دراسته[73]

إن ادعاءات المستشرقين بأن القرآن الكريم ليس بمعجز غير صحيح ، فالواقــع يشهد أن القرآن الكريم نزل على الرسول ﷺ، وقد كان أمياً، وقد تحدى القرآن الكريم العرب وهم أصحاب البلاغة والبيان على أن يأتوا بمثله، ولكنهم وقفوا عاجزين على مجاراته، يقول الباقلاني عن إعجاز القرآن: "إنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه"[74] ، ويقول الخطابي: "واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا لأنه جاءَ بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف مضمنًا أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته؛ من تحليل وتحريم، وحضر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها... ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قُوى البشر، ولا تبلغه قدَرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله"[75]

المطلب الثالث ـ أثر تأويلات المستشرقين على الدعـوة وطرق علاجها:

أولاً ـ آثار تأويلاتهم علـى واقـع الدعـوة : إن من أشـدّ الآثار والأضرار من تأويلات المستشرقين للقرآن الكريم، أنها فتحت الباب للعلمانيين والعقلانيين للطعن والتشكيك في كثير من الأحكام الشرعية، حيث وجدوا في تأويلات المستشرقين بغيتهم في تحليل ما حرم الله، ومن الآثار الخبيثة التي خلفتها تأويلات المستشرقين على الدعوة الإسلامية، الدعوة إلى المساواة المطلقة بين الرجال والنساء في كل الحقوق والواجبات، حتى فيما ورد به نص قطعي كالميراث تحت مسمى العدل ، إلى الدعوة إلى إلغاء الحجاب والقوامة ومفهوم بيت الطاعة، ومفهوم النشوز باسم الحرية الشخصية، ومطالبتهم بمنح المرأة حق السفر بدون محرم، إلى دعوتهم إلى منع تعدد الزوجات وتجريمه كالسفاح إلخ الدعوات[76]. ويسعى أعداء الإسلام من خلال الكنيسة والمستشرقين على تكوين الكثير من الشخصيات الإسلامية، حيث يقومون بمنحهم الجوائز العالمية ويغدقون عليهم الأموال ويسلطون عليهم الأضواء كي يقتدي بهم شباب المسلمين في التشكيك والطعن في القرآن الكريم.

"لقد استهوت المعايير النقدية الغربية، نقّادنا الحيارى، فتلقفوها دون وعي، وراحوا يطبقونها بعَمَهٍ على القرآن الكريم، متجاهلين هم وأئمتهم من المستشرقين اختلاف الظروف والأحوال والاهتمامات بين القرآن ومجموع كتب العهدين القديم والجديد، ولأن هذه المعايير قد قادت أصحابها إلى الشك في كتبهم وعقائدهم، فلا بد أن تقود دراساتهم - أيضا - إلى الشك في القرآن والسنة"[77] ، وتأثر بعض الباحثين المعاصرين من الشباب العربي المسلم بهذه الشبهات التي يروج لها المستشرقون باسم البحث العلمي، والانبهار بالجرأة والطريقة التي سلكها المستشرقون في تأويلاتهم للنصوص القرآنية، والنتائج الخطيرة التي تمخضت عنها من تشكيك في العقيدة، ودحض للنبوة، وافتراء على التاريخ، وتزييف للحقائق.

وما نراه اليوم من هروب كثير من الشباب من الجنسين من الدول العربية والإسلامية إلى الدول الغربية، وتركهم للإسلام وإعلانهم للإلحاد هناك، ما هو إلا نتيجة للتشكيك والتشويه الذي يقوم به المستشرقون للدّين الإسلامي من خلال تأويلاتهم الباطلة للقرآن الكريم، وكتب التراث الإسلامي.

ثانيًا ـ طــرق التصدي لشبهات وتأويلات المستــشرقـين : يقع على الدعاة إلى الله عزوجل مسؤولية كبيرة في التصدي للمستشرقين وما يبثونه من سموم وشبهات، زعزعت عقائد شباب المسلمين، فينبغي على الدعاة بيان فساد وبطلان هذه التأويلات

الخاطئة ضمن خطابهم الدعوي المتجدد في كل ميادين الدعوة، وينبغي أن يقوم العلماء والمفكرون بدراسة ومراجعة كل مؤلفات المستشرقين حول الدين الإسلامي، ومحاسبتها في ضوء البحث العلمي، حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم، وأخطائهم في فهم النصوص وبيان المعنى، ويظهر للناس كذبهم وخبثهم وضعف منهجم الذي يتبعونه في التعامل مع النصوص القرآنية، وبيان مصادرهم التي يعتمدون عليها وأخطاء النتائج التي يستنبطونها منها، ويطّلعوا على ما يضمرون في نفوسهم من عداء للإسلام ومصادره، وما يكنونه من أغراض سياسية ودينية في خفايا دعوتهم وتربيتهم، وكل ذلك مؤامرة على الإسلام والأمة الإسلامية، يجب إحباطها[(78)]، كما يقع على جميع أفراد الأمة الإسلامية الرد على شبهات المستشرقين، كل حسب موقعه وقدرته، فهي مسؤولية تضامنية تشمل حكام المسلمين والعلماء والمثقفين ورجال الإعلام، فالإعلام له دور كبير ومؤثر، حيث يقوم المستشرقون وبدعم من الكنيسة في إنشاء العديد من القنوات والصفحات على مواقع التواصل الاجتماعي الموجهة إلى الشباب المسلم، ويستضيفون في هذه المحطات المستشرقين والمرتدين عن الإسلام الذين انخدعوا وتأثروا بشبهات المستشرقين أعداء الدين.

لذا وجب على المسلمين العمل على صد هذه الهجمة الشرسة من خلال إنشاء محطات وصفحات على مواقع التواصل الاجتماعي، تقوم على تفنيد هذه الشبهات والتأويلات الباطلة للقرآن الكريم . وينبغي على أجهزة الدولة كوزارة الثقافة والمخابرات العامة مراقبة المنظمات العالمية والجمعيات الخيرية التي بدأت تفتح لها فروعا في ليبيا، والتأكد من طبيعة عملها وجهودها التي تقوم بها داخل ليبيا، لأن المستشرقين يغيرون في أسمائهم فيطلقون على دراستهم الدراسات الإقليمية تارة والدراسات الاجتماعية تارة أخرى.

كما ينبغي على أولياء الأمـــور مراقبة أبنائهم وتحذيرهم من خطـــر تأويلات المستشرقين للقرآن الكريم، التي تعرض على مواقع التّواصل الاجتماعي، من خلال بث السموم الفكرية في عقول الناشئة، حيث تعمل الكنائس في الغرب بمحاولة استقطابهم كي يخرجوا من دينهم وعقيدتهم، ودخولهم في المسيحية المحرفة.

الخاتمـــــة:

من خلال دراستي في تأويلا ت المستشرقين ، توصلت إلى النتائج والتوصيات الآتية.

أولا ـ النتائج:

1 - تبين خطأ المستشرقين في تأويل النصوص القرآنية، حيث لم يلتزموا بقواعد

البحث العلمي، بل اعتمدوا على القراءات الشاذة في تأويل النص القرآني.

2- إن عداء المستشرقين للإسلام والمسلمين، قادهم إلى تأويل النص القرآني على غير حقيقته، بما يخدم أغراضهم الخبيثة للطعن والتشكيك في كتاب الله عز وجل.

3- كما تبين أن المستشرقين لم يلتزموا بالحيادية في تحليل النص القرآني، بل اعتمدوا على التحريف وعدم التمتع بالأمانة العلمية وضوابط التأويل.

4- عدم فهم ومعرفة المستشرقين للغة العربية وأساليبها البلاغية، مما أدى إلى عدم فهم وتحليل النص القرآني، وكذلك الادعاء بأن أصل الحروف المقطعة يرجع إلى التصوف اليهودي.

5- زعم المستشرقون أن الدعوة الإسلامية دعوة للعرب فقط، وبذلك أنكروا عالمية الإسلام.

6- أغلب تأويلات المستشرقين تهدف إلى محاولة إثبات أن القرآن الكريم كتاب من وضع البشر، وليس من عند الله، ومن ثم فهو نص لغوي يخضع للبحث والنقد كسائر النصوص الأدبية.

ثانيا ـ التوصيات:

1 – يجب أن يقوم الدعاة والعلماء بدراسة ومتابعة كل ما يقوم به المستشرقون من دراسات وأبحاث حول القرآن الكريم، وبيان وكشف ما فيها من أخطاء وتأويلات باطلة تشوه القرآن الكريم.

2– التحذير من خطر المنظمات العالمية والجمعيات الخيرية التي انتشرت مؤخرا في ليبيا، فبعض هذه الجمعيات يديرها وينظمها المستشرقون ويبثون من خلالها سمومهم الفكرية في البلاد.

3 – التحذير من الفكر الاستشراقي في الجامعات الليبية والمدارس.

4- أن يعقد مؤتمرا علميا حول الشبهات التي يثيرها المستشرقون من خلال التأويلات والترجمات الغير صحيحة التي يقومون بها للقرآن الكريم.

5 – أن تقام مؤسسات علمية متخصصة للرد على المستشرقين بكل اللغات العالمية.

والحمد لله في البدء والختام، ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كل من قرأه.

الهوامـــــــــــش :

(1) سورة يونس الآية 39
(2) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، ط:1،(ب، ت، ط)ج:11 ص: 32- 35.
(3) سورة الأعراف: الآية 53 .
(4) مقاييس اللغة، ابن فارس، دار الفكر عام - 1979م. ج:1،ص: 159 .
(5) الصحاح في اللغة ، للجوهري، ج: 4 ، ص: 313 مادة (أ ول).
(6) الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، المكتب الإسلامي، لبنان (ب، ت، ط)،ط ج: 3، ص: 53.
(7) المستصفى من علم الأصول، أبو حامد الغزالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ط:1،/1997م،ص: 23.
(8) البرهان في أصول الفقه، الجويني، دار الكتب العلمية بيروت، ط: 1 ، 1997 م،ج:1، ص193.
(9) سورة آل عمران: الآية 7
(10) القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، دار الغرب الإسلامي ط: 1، 1992 م، ص:1057 .
(11) سورة الأعراف: الآية 53
(12) التفسير المنير في العقيدة والشريعة، د وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر دمشق ط:،2، 1418ه،ج:8، ص: 229.
(13) أخرجه أحمد في مسنده،ح: 2397، وصححه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب: ذكر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما،ح: 6280، وصححه البويصري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، دار الوطن للنشر، الرياض، ط:1، 1999، ج:7، ص: 285. وصححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند أحمد دار الحديث – القاهرة ط:1، 1995ج: 3، ص: 95.
(14) غريب الحديث، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1985، ج:1، 37 .
(15) الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، محمد مصطفى الزحيلي، دار الخير للنشر، دمشق ط: 2 - 2006 م ج: 2، ص: 102، 104.
(16) ينظر: دحض دعوى المستشرقين أن القرآن من عند النبي صلى الله علية وسلم، سعود بن عبد العزيز الخلف، غراس للنشر والتوزيع، ص: 168، 169.
(17) ينظر: الجامع لمسائل أصول الفقه، عبد الكريم بن علي النملة، مكتبة الرشد الرياض، ط:1، 2000م ،ص: 196،195.
(18) سورة آل عمران: الآية 7
(19) سورة آل عمران: الآية 7
(20) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ج: 3ص:162.
(21) موطأ الإمام مالك، مؤسسة الرسالة، 1412 هـ ،ح: 2079.
(22) سورة المائدة الآية:13
(23) ينظر: النبذة الكافية في أحكام أصول الدين، أبو محمد الأندلسي القرطبي الظاهري، دار الكتب العلمية بيروت، ط: 1، 1405، ص:37.
(24) سورة الأعراف : الآية 33
(25) سورة المائدة : الآية 6
(26) سورة المائدة : الآية 6
(27) الجامع لمسائل أصول الفقه، عبد الكريم بن علي النملة، ص: 194-195.
(28) الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية، دار العاصمة – الرياض، ط 3 ، 1998، 1 / 187- 201.
(29) سورة ص: الآية 75.
(30) ينظر: المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، إبراهيم مصطفى، دار الدعوة، تحقيق مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1960م،ج: 1، ص:482 .
(31) معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1958م، ج3 ، ص:311

(32) الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة ط: 1، 2006م ص: 45
(33) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود زقزوق مؤسسة الرسالة، بيروت 1987م، ط:1، ص: 18.
(34) القرآن الكريم في الفكر الاستشرافي، قحطان عدنان بكر، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، مج: 47 ، 2020 م، ص: 297.
(35) المصدر السابق ، ص: 297.
(36) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، أبو الحسن الندوي ،دار القلم الكويت، ط: 4 ، 1983 ص:189.
(37) سورة النساء: الآية 46
(38) ينظر التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر تونس، 1984 م، ج:5، ص: 75.
(39) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي ،المكتب الإسلامي: دمشق - سوريا ط: 3، 1982 م، ص:14.
(40) موسوعة علم النفس، أسعد رزق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ط:3، 1987م، ص40.
(41) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقي، ساسي سالم الحاج، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط:1، 2002م/1 169
(42) سورة الشورى الآية 11
(43) سورة العنكبوت الآية 43
(44) منهج الإسقاط في الدراسات القرآنية عند المستشرقين، محمد عامر عبد الحميد، ص: 28
(45) سورة الشورى: الآية 11
(46) سورة البقرة: الآية 54
(47) العقيدة والشريعة في الإسلام، جولدزيهر، ترجمة: محمد موسى وآخرين، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط2، ص:108 .
(48) مقدمات العلوم والمناهج، أنور الجندي ج: 4 ، ص: 848.
(49) سورة الأحزاب: الآية 37
(50) ينظر: الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، حسين حسينى معدى، دار الكتاب العربى – دمشق ط: 1 – 1419، ص: 22.
(51) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: 2، 1964 م. ج:14، ص:191.
(52) موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام، أحمد بن سليمان وآخرون، دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع، ط:1، 2015 م، ج:8، ص: 346.
(53) تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1419 هـ ج:6، ص: 378.
(54) موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام ، ج:8، ص: 338.
(55) أحكام القرآن، ابن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط: 3، 2003 م ،ج: 3 ص: 576.
(56) سورة الشورى: الآية 7
(57) سورة الجمعة الآية 2
(58)الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، أبو خليل، شوقي، دار الفكر، بيروت، ط1. -1995م ص: 141.
(59) المصدر السابق، ص141،
(60) سورة سبأ : الآية 28..
(61) الإتقان في علوم القرآن،جلال الدين السيوطي، دار الفكر، لبنان، 1996م ، ج:2، ص: 481.
(62) ينظر: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، محمد أبوليلة، دار النشر للجامعات مصر ، ط: 1، 2002م، ص:229

(63) مزاعم المستشرقين حول القرآن الكريم، محمد مهر علي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، ص:30-31.
(64) ينظر القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي ، محمد أبوليلة، ص:226، 228 .
(65) ينظر: المصدر نفسه ، ص228.
(66) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور،ج:26، ص: 278 .
(67) إعجاز القرآن ، الباقلاني، دار المعارف – القاهرة، (ب، ت، ط) ص: 9.
(68) إعادة النظر في كتابات العصريين، أنور الجندي، دار الاعتصام،(ب، ت، ط) ص:311 .
(69) سورة النحل: الآية 103
(70) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ج: 14 ،ص: 286.
(71) سورة الإسراء: الآية 88
(72) مذاهب التفسير الإسلامي للعالم المستشرق، جنتس جولد تسهير، ص125، دار اقرأ، 1403هـ-1983م.
(73) ينظر: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي ، محمد أبوليلة ص:411.
(74) إعجاز القرآن ، للباقلاني، ص:35.
(75) بيان إعجاز القرآن، الخطابي ، دار المعارف مصر ط:3، 1976م ص: 27 .
(76) ينظر: التأويل بين ضوابط الأصوليين وقراءات المعاصرين - دراسة أصولية فكرية معاصرة-، رسالة ماجستير، للطالب ابراهيم محمد طه بويداين، جامعة القدس، 2001 م ، ص: 178.
(77) القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي ، محمد أبوليلة ص:412 .
(78) ينظر: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، أبو الحسن الندوي، دار القلم الكويت، ط: ، 1983 ص: 197.